مجلة الإحياء، المجلد: 21، العدد: 29، أكتوبر 2021، ص - ص: 1065 – 1074
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

تمثلات البطل في تاريخ المجتمعات
(مقاربة أنثربولوجية - تاريخية)

Representations of the Hero in the History of Societies
(Anthropological-Historical Approach)

د. محمد العيد مطمر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة باتنة **1**
drmetmer@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 2020/10/14 تاريخ القبول: 2021/02/24

ملخص

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على أحد أهم المواضيع الكبرى في تاريخ المجتمعات البشرية، ألا وهو تمثلات البطل في جانبها الأنثروبولوجي – التاريخي، ضمن المحاور الأساسية للموضوع، وهي نماذج لأداء البطل في الأسطورة وكذا في التاريخ والفلسفة. ويمكن وصف البطل بأنه شجاع، مبدع محب للحياة، عاطفي وحدسي متساهل، وبذلك يكون قادرا على التأثير في سلوكيات الأفراد، ويحاول الالتزام بتلك الصفات والعمل بموجبها، دون تردد أو ملل.

ومن النتائج؛ التي تم استخلاصها من خلال ورقة البحث هذه، أن البطل هو صورة ماثلة في المجتمع بوجود الإنسان، وقد حظي بمكانة مرموقة في الممارسات الدينية والاجتماعية والسياسية في مختلف الحضارات وعلى مر الزمن، ويبقى البطل رجل أحداث، أفعاله هي نتائج، طاقات وملكات وذكاء حاد وإرادة قوية، وله قدرة فائقة على جذب انتباه الناس إليه، مستخدما بذلك مهاراته في المجتمع.

الكلمات الدلالية: البطل؛ البطولة؛ المفاهيم؛ المجتمعات؛ المهارات.

Summary:

This research aims to highlight one of the most major topics in human's history, which is: «*The hero image from the anthropological side*». I choose firstly to start with the definitions of these important concepts: (Hero and Heroism) accompanied by some models for hero's performance in myth as in history and philosophy. In fact, the hero can be described as courageous, creative, lover of life, emotional, intuitive and permissive, and able to influence the behavior of individuals, and tries to adhere to those qualities and act according to them, without hesitation or boredom.

The most important results that have been drawn from this research is that the hero has a deep influence on the different religious, social, and political practices in society. He is considered as a great and bright model, he still an immortal in the memory of the successive generations.

Keywords: Hero; Heroism; Concepts; Communities; Skills

مدخل:

مما لا ريب فيه، أنّ للبطل مكانة مرموقة في حياة الأمم والشعوب، فهي لا تستطيع أن تعيش بغير البطل، ولا يمكن أن تستغني عن الزعامة في حياتها الاجتماعية والسياسية، وقديما عبدت الشعوب البطل، وجعلته في مصاف الآلهة، وقدمت له القرابين والنذور، فعبد قدماء اليونان والرومان آلهتهم وأبطالهم على حد سواء.

وعبدت الشعوب الوثنية البطل، واعتبرته ركنا مهما من أركان ديانتها الوثنية، فعبد قدماء السويد والنرويج البطل "أوديف" وهو من أقدم أشكال البطولة عبادة، وقد أفرطت وغالت بعض الشعوب في إجلال البطل إفراطا لا حدود له، وكانت طقوس عبادة الأبطال، تقام عادة حول قبر البطل، وتقام لبعضهم في مكان آخر، هكذا كان أبطال هوميروس في الإلياذة والأوديسا، نبلاء أوقادة يعبدون في ولاياتهم[1].

وهذا؛ ما نجده لدى معظم الحضارات، وعند الكثير من شعوب الشرق الأقصى والأدنى، وعند المصريين القدماء وفراعنتهم، والحيثيين والكنعانيين والفرس واليونان والرومان، ولدى العرب في الجاهلية، والحضارة العربية الإسلامية، وكذا في أوروبا وأمريكا ومختلف جهات العالم[2].

والواقع أن لكل شعب بطله القومي الأول، الذي جسّد طموحات هذا الشعب في وقت من الأوقات، وحقق له ما عجز أسلافه عن تحقيقه، ومن أشهر الأمثلة ما نجده في العصور الوسطى في أوروبا، إذ أن الثائرة "جان دارك"(*) التي قادت الثورة الفرنسية ضد الإنجليز في القرن الخامس عشر، سقطت في قبضتهم، وأعدموها حرقا، وتحولت إلى رمز للسيادة الوطنية الفرنسية، حتى يومنا هذا.

وفي التاريخ المعاصر، كان اندلاع الثورات التحريرية الاستقلالية ضد الاستعمار الغربي، دافعا قويا لظهور الأبطال، قادوا المقاومات والثورات الشعبية، ففي الجزائر غداة تعرضها للغزو والاحتلال الفرنسي عام 1830م. خيّل للجزائريين، أن ليل الاستعمار طويل، فإذا بابن محي الدين، الأمير عبد القادر [3] يبزغ فجأة فيهيب بالجزائريين، أن ينهضوا ويقاوموا الغزاة المحتلين، ويصبح بطل المقاومة الوطنية الشعبية بدون منازع.

وحلت مقاييس مختلفة تماما، بشكل خاص في القدرة على تحقيق، إنجاز ضخم لصالح المجتمع، اعتمادا على الإرادة والحكمة والتخطيط والكفاح المرير المتواصل، حتى ولو خلا هذا الجهد من كل مظاهر القوة الجسمية، ولعل أوضح مثال يمكن عطاءه هو "غاندي"(**) قائد الثورة الاستقلالية في الهند، وهو ينظر إليه شعبه على أنه البطل القومي الأول من دون منافس قريب.

تعريف البطل

أجمعت قواميس اللغة العربية، القديم منها والحديث على تقديم تعريف، يكاد يكون موحدا للبطل، وقد اتفقت معظم التعريفات على وصفه بالشجاعة والإقدام والجرأة والسبق والإيثار، وفي التعريف أيضا، أن البطل، جاء من الإبطال والإزاحة والمحو السلبي، فيقال بطل الشيء ليبطل إبطالا، ويقال للرجل بطل، وجمعها أبطال، وللمرأة بطلة، يقال أيضا، بطل الشيء بطلا وبطلانا، أي ذهب ضياعا، أي ذهب دمه بُطلا، إذا لم يؤخذ له ثأر أو دية[4].

ويرتبط البطل، اصطلاحا بمعناه اللغوي، ارتباطا وثيقا، وجاء في المراجع العربية، أنه يتسع اتساعا حتى يتجاوز الوقوف عند الغلبة على الأقران في جانبها الحربي، ليشمل البطولة النفسية والخلقية والاجتماعية، ولتكون السجايا الرفيعة، والشمائل الأصيلة، ومكارم الأخلاق قوامها.

وجاء في لسان العرب، أن البطل، هو الشجاع، وقد سمي بذلك لأسباب منها، أن الأشداء يبطلون عنده، أو أن الأقران تبطل عنده، فلا يدرك لهم ثأر، ومعنى هذا، أن البطل شجاع، ممتاز عن الشجعان الأشداء، لأنهم إذا ما التقوا به، يضعفون وتتصاغر شجاعتهم، أو لأنه يقتل الأقران، فلا تجرأ أن يثأر منه[5].

والبطل في اللغة الإنجليزية (Hero) هي مفرد لكلمة أبطال، أو الأبطال، والبطل، هو كائن استثنائي، يختلف عن البشر عامة بصفاته أو بأعماله، وهو التعبير المثالي عن حلم الإنسان بالتفوق على القدرات

المحدودة للجنس البشري، أما على مستوى الجماعة فالبطل، تجسده منظومة من القيم، تسعى جماعة ما، لتثبيتها وتعزيزها، ولذلك حظي البطل بمكانة كبيرة في الممارسات الاجتماعية والدينية في كل الحضارات.

البطل شخصية تتميز بالقدرة على الاستقراء، مدفوعة بمجموعة من القيم ملهمة اجتماعيا، يقوم البطل بإطلاق أفكاره للآخرين، كطريقة لجذب الانتباه، لما يعتقد بأنه مهم، والذي في العادة مرتبط بالأحداث الجارية في مجتمعه، والبطل شخصية دعائية بالطبيعة، لديه قدرة فائقة على جذب انتباه الناس إليه، أو للقضايا، التي يؤمن بها، مستخدما بذلك مهاراته في المجتمع[6] ويمكن وصف البطل بأنه شجاع، مبدع محب للحياة، عاطفي وحدسي متساهل، وبذلك يكون قادرا على التأثير في سلوكيات الأفراد، ويحاول الالتزام بتلك الصفات والعمل بموجبها، دون تردد أو ملل، وهو أيضا قيمة أخلاقية ومعنوية، ومثل أعلى، كما أنه، مصدر زهو المجتمع، خاصة، عندما يكون المجتمع في ذروة ضعفه وتأزمه، وكأن البطل، حلم وتارة أخرى، مجرد أمل في الأمل.

ويرتبط البطل في الوعي الجمعي بجملة صفات إيجابية، عاش بعضها قرونا طويلة من الزمن وتبدل بعضها في العصر الحديث بفعل التغيرات الجذرية، التي طرأت على حياة المجتمعات، أينما كانت في العالم، وبشكل عام، تبقى صفات البطل، كامنة في مقدرته الخارقة على إنجاز ما لا يستطيع أي كان إنجازه، إنه الشخص المستعد لمواجهة الصعاب، حتى حدود التضحية بالنفس من أجل مصالح مجتمعه[7] أو من أجل الدفاع عن قيمه ومعتقداته، التي غالبا ما تكون منحازة إلى مصالح غالبية الناس من حوله، فينظر إليه هؤلاء على أنه حاميهم، والمدافع القوي عنهم بعبارة أخرى، أنه منقذهم.

ومن النادر؛ أن يكون مجتمع ما، قد عرف أبطاله حقيقة عن قرب، ولا يبدو مكترثا بالحقيقة التاريخية للبطل، بقدر ما هو مهتم بصورة هذا البطل، كما صاغها الأدب أو الفن، فجملوا ما أمكن تجميله من صفات هذا البطل، ولذا يبدو انبهار الإنسان، وحتى المجتمع ككل ببطل معين، هو أقرب إلى أن يكون تعبيرا عن تطلعات وأمنيات منه إلى تكريم البطل الحقيقي لإنجازاته العظيمة ويجب على المجتمع، أن يرتقي إلى مستواها في مواجهة تحدياتها.

مفهوم البطولة

تجمع المراجع العربية على أن البطولة، هي الشجاعة الفائقة، التي يتصف بها القليل من الناس، وجاء في لسان العرب، أن البطولة، هي الشجاعة[8] وتشكل البطولة طليعة المفاهيم، التي تبدأ بالتغلغل في عقل الإنسان، منذ طفولته من خلال قراءاته الأولى لكتب الحكايات، أو حتى منذ قدرته على فهم معانيها، وهو يسمعها من ذويه يتلونها عليه قبل النوم، ومهما تقلب مفهوم البطولة في عقل الإنسان عندما يكبر، فإنه يبقى على جوهره التربوي من خلال مجموعة صفات حميدة أبرزها درء اليأس، ما أمكن أمام الصعاب، والإيثار الضروري لحسن الحياة في المجتمع .

يربط الكثيرون نشأة البطولة بالحضارة الإغريقية، وسير أبطال تلك الحضارة، ولكن الواقع، أن كل الحضارات القديمة، مجدت أبطالها الأقوياء، ووجدنا في الرسوم الفرعونية والبابلية أعمالا لا يقوى عليها إلا الأبطال، ففي مشاهد الصيد مثلا، نرى الفرعون المصري، أو الملك البابلي، يصطاد الأسود بالرمح، خلال الاشتباك معها، وليس عن بُعد، وهذا ما لا يجرؤ عليه، أي كان على القيام به، وحتى فيما يخص المجتمعات الأولى العائدة إلى ما قبل هذه الحضارات[9] يؤكد علماء الأنثروبولوجيا، أن قيادة العائلات

والقبائل، كانت للأقوى، الأقدر في الدفاع عنها، وفي الإنسان، الذي يأتي إليها بأكبر كمية من طرائد الصيد[10].

وإن ما دفع بالقوة الجسدية، لأن تكون المقياس الأول للبطولة، هو طبيعة التحديات التي واجهتها المجتمعات وأخطرها على مصيرها، كانت الحروب، وأن الجديد الذي طرأ على البطولة في الأدب برمته، فالإلياذة [11] والأوديسا[*] والمؤلفات والمسرحيات اليونانية، كلها تقريبا تختار بطلها من الملوك أو الأمراء أو القادة.

البطل والأداء البطولي

البطل في حياته وبعد موته، مثل عال ومرموق يرفعه قومه، ويتطلعون إلى علاه، وقد يكون مرموقا من غير قومه، لأن بطولته جديرة بالتقدير والاحترام، وقد وصف "توماس كارليل" البطل بأنه (ينبوع نور يتدفق، فليس أحسن شيء من مجاورته، فهو نور يضيء ظلمات الحياة، وليس هو سراج أشعل، ولكن هو نجم شبته يد الله بين أشباهه من كواكب الأفق، فهو ينبوع نور، يتدفق بالحكمة، ومعاني الرجولة، والشرف الكبير، وهو الذي في شعاعه أنس الأرواح، ومتعة الخواطر[12].

لقد كان الناس، ومازالوا يمجدون أبطال الحرب، ولاسيما الحرب التي مبعثها الإيمان بالحق، والحفاظ على العقيدة ودفع الظلم، ونشر السلام، وما من شك، أن هذه البطولة وقوادها المظفرين، هم الأبطال، لأنهم حفظة الإنسانية، والقيم الأخلاقية، والمثل العليا، إن إجلال الأبطال، باقية في النفس البشرية، ما بقي الإنسان على هذه الأرض [13] وكان ينصب للقادة الفاتحين أقواسا للنصر وتعقد على رؤوسهم أكاليل الغار، كما هو واضح بجلاء في التراث اليوناني والروماني وعند شعوب أخرى في مختلف المجتمعات [14].

وهنا لابد أن يظهر الدور الأساسي في حركة المجتمعات والتاريخ، وهو الصراع، الذي بدأ مع بداية الحياة الإنسانية لتحقيق الذات، ومبعوث الوجود والبطولة فيه، وإن في يوم من الأيام انتهت الحياة، فلأن الصراع قد أفل وانطفأ ضياؤه، وهو رئة الحياة، التي ينبغي أن لا تتوقف على الاشتغال، لذلك حاول الإنسان جاهدا التمسك بها، مبهورا بها في صور راسخة ليبني منظومات القيم لديه من عقائدية إلى أخلاقية مرورا بالاجتماعية[15] فيها، وبذلك فالصراع ظاهرة كونية مرتبطة أشد الارتباط بواقع التناقضات، التي تحفل بها حياة الإنسان، مما يفرض عليه في النهاية، إيجاد سبل التوازن الداخلي لذاته، وهنا تظهر البطولة الأسطورية.

- **الأداء البطولي والأسطورة:** عُرفت الأسطورة، بأنها حكاية، تنقل بواسطة الرواية، وهي قصص خيالية، ترتبط بالظواهر والكوارث الطبيعية، أو بحكايات لا منطقية متوارثة، مثلا، تصور الأولون سبب نزول المطر، انه من إله، يصب الماء من إناء بالسماء، أما الريح فلها إلـه، ينفخها بمراوح، بينما الشمس إله، لأنها تضيء الدنيا[16].

ولقد كان الإنسان البدائي، يقوم بأداء طقوس معينة للحصول على هذه الأشياء، وكانت تعيش في خياله هذه الأساطير، وبسبب هذا، صارت الأساطير، حكايات شعبية، مقدسة لشعب أو قبيلة وتراثا متوارثا، لها صلة بالإيمان والعقائد الدينية، لدى هذه الشعوب، كما تعبر عن واقع ثقافي لمعتقداتهم عن الموت والحياة، وتروي هذه الأساطير، ملاحم الشعوب، وروايات عن الأجداد وحروبهم وانتصاراتهم، وغالبا ما تدور أحداث الأسطورة عن الآلهـة، وتختلف عن الملاحم، التي تسجل أفعالا إنسانية من ظواهر الكون، والطبيعة والعادات الاجتماعية.

وفي القرن الرابع قبل الميلاد، وجدت أساطير، تبالغ في تصوير مغامرات أشخاص واقعيين ولا يسلم علماء الأنثروبولوجيا بنظرية واحدة، تطبق على كل الأساطير، والأصح عندهم التفسير الخاص بأساطير

كل أمة، واستغلت الأساطير في الأدب، سواء منها المستعار من الديانات القديمة، أو التي أعاد الكاتب صياغتها لتلاءم موضوعه، وإن الأسطورة، كيان انبثاقي صنعته العقلية الإنسانية في مرحلة أولى لتبادل الأدوار معه في جدلية الحياة، فتأسر ذهنيته التي ارتمت في أحضانه بشكل بطولي[17] وقد تجسد ذلك في أول مظاهر الحياة، وهي المحاكاة، وظهور الفنون المختلفة، وما دامت الغاية، التي تسعى إلى تحقيقها الأسطورة، أو بطلها الأسطوري في تجسيد غاية مطلقة، تتجاوز حدود الزمان والمكان، فهي لم تنحصر في رغبة فردية، تخضع لزمان أو مكان وجودها، لأنها لا تضع في اعتبارها الزمان والمكان، بل تنتقل عبرهما معا، وبطلها يمكن أن يخوض أحداثا، تدور بشكل منتظم لمئات السنين[18].

ولطالما احتاج الإنسان في مسيرته الطويلة إلى فك رموز هذا العالم، وإيجاد مفاتيح لمكوناته الموغلة في التعقيد والغموض، فأنشأت لديه غريزة البقاء من خلال التصورات، التي آمن بها إلى أبعد الحدود، فتبلورت في الاعتقاد الديني، فالدين عند اليونان يوحى بالشعر والموسيقى والطبيعة وبأسلافه وبتاريخ بلاده، وآلهته كانت تجسيدا لقوى الطبيعة والعواطف، ثم إن آلهته، كانت هي أسلافه، فكل أسرة تنتسب إلى بطل، فهو ابن إله وإنسان من البشر في آن واحد.

والأسطورة؛ هي نتاج التفسير الساذج للشعوب البدائية لظواهر الطبيعة المختلفة، التي كـانت تصادفهم في حياتهم اليومية، بحيث كانوا يضعون لكل ظاهرة، بل ولكل نشاط يقومون به إلـها خاصا، وكانوا ينسجون حوله قصصا خيالية خارقة، وهذا ما وجدناه في أساطير الهنود والصينيين [19] وقد تكون الأسطورة في هيئة حكاية خرافية.

وتبقى الأسطورة، مجهولة المؤلف، فهي حكاية أجمعت الشعوب على نفي وجودها والإيمان بحقيقتها، وتظل الأجيال تتناقلها لما فيها من معنى فلسفي وسيرة لفكر شعب وإيمانه وثقافته[20].

ـ الأداء البطولي والتاريخ: وقد أظهر التاريخ القديم، وكذا الحديث منه، على تنوع حقبه وتشعبها، الحاجة الماسة، لدى المجتمعات بشكل عام، لهؤلاء الرجال القادرين على تحرير مجتمعاتهم من متاعبها ومن أعدائها فإن لم يوجد رجل بطل، داخل صفوف المجتمع، فإن هذا المجتمع يعتريه نوع من العجز، لا يمكن تجاوزه إلا بابتكار القوة، التي تتناسب مع حاجته في شخص بطل كان ما يكون، والذي سيحمل على عاتقه عبء تحقيق الخلاص المفترض، وعادة ما يكون أولئك الأبطال، إما أناسا عاديين تماما فيكلفون فوق طاقتهم، فتنفجر قواهم ليتحقق الهدف، أو أن يعكف الإبداع الخارق على ابتكار شخصيات خيالية، تقوم بالوفاء بالغرض نفسه في عملية التخيل، وهكذا يبحث الناس عن المخلصين أبطالا في مجتمعاتهم.

وجدت نموذجا في صور البطل، ترددت في تقديمه، ولأنه من النماذج الغريبة في نوعها، أذكره على مضض، حيث حدث، وأن عينت الإمبراطورية العثمانية فلاد تيبس(Vlad Tepes) أميرا على إحدى الولايات الرومانية ثلاث مرات، ثم انقلب عليها، وهمّت بعزله، ويروي التاريخ، أنه خوزق على مدى أيام قليلة عشرين ألف من مواطنيه، الذين تآمروا ضده، وأنه جمع أكثر من خمسة آلاف من المشوهين والمعاقين فأحرقهم، وحينما رفض مبعوثو الباب العالي، أن يخلعوا طرابيشهم في حضرته، لأن تقاليدهم تمنع ذلك، أمر ـ تدعيما لتقاليدهم ـ أن دق طرابيشهم في رؤوسهم بالمسامير، وحينما أرسل السلطان محمد الثاني حمزة باشا حملة أخرى لخلع الأمير، خوزقهم جميعا، وأمر باستقبال الحملات العثمانية على حدود مدينة (تارجوفيست) بغابة من الجنود الأتراك المخوزقين، وألصقت به الأساطير الشعبية صفات أخرى، كتحوله بعد مصرعه في ساحة القتال إلى خفاش في الليل وامتصاص دم ضحاياه، وهي الصفات التي أوحت للكاتب

الإيرلندي (برام ستوكر) بروايته (دراكولا - DRACULA) في عام 1897 التي نشرت أسطورة مصاص الدماء في العالم أجمع[21].

وفي عام 1974 أعلنت رومانيا، أن (دراكولا) بطلا قوميا، وتصدر "بوخاريست" بمناسبة مرور خمسمائة عام على مصرعه، عشرات الكتب والدراسات، التي تمدحه وتمجده وتعرض الأفلام والمسرحيات، وتقام المعارض التي تشيد به وبحكمه، وتنظم زيارات سياحية لأطلال قلعته الرهيبة، وإلى مقبرته التي بها تابوته الفارغ، وبينما يقوم السياح بهذه الجولة، تظهر لهم أشباح، وتخرج جثث من مقابرها بشكل مفزع من أداء موظفي السياحة الرومانية[22] لكن استغلال أسطورة (دراكولا) للسياحة شيء، ورفعه إلى درجة بطل قومي شيء آخر.

وذكر بعض مؤرخين كتابة التاريخ الأوربي الحديث، كان لمجرد حضور نابليون بونابارت بساحة المعارك، تزداد القوة المعنوية، ورباطة جأش الجيوش المقاتلة، بما يقابل خمسين ألف مقاتل إضافي، وقال نابليون في هذا : (ليس الرجال، وإنما الرجل الواحد، هو الذي يتوقف عليه انتصار الجيش) وقال أيضا: (ليست الجيوش الرومانية، التي قهرت الغاليين (Les Gaulois) إنما قيصر، إنما ارتجفت أمام حنبعل[*] ولم تكن الجيوش المقدونية، التي اقتحمت بلاد الأفغان والهند، وإنما الإسكندر[**] وقد قرأت مقولة، ولم أجد مصدرها في أي مرجع آن، أنه لا يوجد جنود ضعفاء، بل قادة ضعفاء، ويظهر عادة القادة الأبطال، وقت الأزمات والكوارث والصراعات، التي يمر بها المجتمع.

- **الأداء البطولي والفلسفة:** انقسمت المدارس الفلسفية في اتجاه البطل إلى قسمين : (المدرسة المثالية والمدرسة المادية) وقد بلغ الجدل بين أصحاب هاتين المدرستين مداه في القرن التاسع عشر، ولا يزال محتدما حتى اليوم، مواكبا للصراع الأيديولوجي بين الشرق والغرب، وقد انبعثت من المدرسة المثالية، جميع التصورات اللاهوتية والأسطورية[23] وكلها تقيم وزنا كبيرا للفرد (البطل) أو العبقرية الفذة كمحور لعملية (حركة التاريخ) سواء كان هذا البطل نبيا أو قديسا أو فارسا أو مفكرا من طراز نادر، وقد تزّعم المدرسة المثالية في فلسفة التاريخ، توماس كارليل، حيث يرى، أن التاريخ مسيرة للأبطال والعظماء، وسجلا لأعمالهم البطولية، التي تشكل مادة ثرية للتاريخ، وبغير العظماء، ليس ثمة تاريخ، والفضل كل الفضل للأبطال ويقول في ذلك : (إن التاريخ العام، تاريخ ما أنجزه الإنسان في هذا العالم، وهو تاريخ الرجال العظماء، الذين عاشوا وعملوا في هذا العالم، وكل ما نراه متقنا، هو نتيجة أفكار أولئك العظماء، الذين اصطفاهم الله وأرسلهم إلى الناس، ليؤدوا كل ما أناطته به القدرة الإلهية من الخير، فروح تاريخ العالم، إنما هو تاريخ أولئك الفحول)[24].

ومن هذا نخلص إلى القول، إن تاريخ العالم، هو مجموعة لسير أبطاله، وقد تابع أرنولد توينبي، خطى توماس كارلايل في حماسه لتقدير البطولة، حيث يقيم وزنا كبيرا هو الآخر للفرد (البطل) ويعتبره بحق (محرك التاريخ) فيقول: (إن المجتمع نظام للكائنات البشرية، يقوم فيه بدور الوسيط الاجتماعي في ميدان الفعل، أما مصدر الفعل فمرجعه إلى الأفراد)[25] وهنا يعترف توينبي بالبعد الاجتماعي في تفسير التاريخ، ولكنه، يرى في المجتمع نطاقا للكائنات البشرية، ويرى في الفرد كائنا اجتماعيا، لكن المجتمع مجرد وسيط، أو ميدان للفعل الفردي، وبالتالي تصبح أفعال الأفراد، هي الثقل في عمليات حركات المجتمع، وهنا تتجلى بوضوح نظريته الشهيرة (التحدي والاستجابة) وهى (البطل يتحدى، فيستجيب الشعب).

أما المدرسة المادية، فإنها تتلمس قوانين (حركة التاريخ) في المجتمع، والواقع الاجتماعي ذاته إذ تقول: (إن الشعوب، هي التي تصنع تاريخها، حسب طبيعة أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية وأن البطل، هو ابن

عصره، لابد أن يتمخض عنه جيله، وهو مستعار من أحوال عصره وظروف وقته، فالوقت أو الزمن، هو الذي أحدثه وشهره، وهو ابن الزمن، وكل ما جرى على يده، هو من فعل الزمن لا من فعله)[26] ويرى بعض المؤرخين : ان هذا الرأي، يهون من قدر البطل والبطولة في معظم صورها، لأنه يجعل البطل، آلة أوجدها العصر ويسيرها، لأن العصر أحيانا، يكون ملائما لظهور البطل، فليس في كل حين ملائما لظهوره، بل كثير ما ظهر الأبطال في زمان غير زمانهم، فقضوا حياتهم في كفاح خصومهم، وكثيرا ما جهل العصر، فضل البطل في حياته، ولم يدرك بطولته، إلا بعد موته، وهنا نتساءل: إذا كان البطل، وليد عصره، فلماذا كانت البطولة من نصيب البطل دون غيره من معاصريه؟ ولماذا لم يتعدد الأبطال في كل عصر؟ وفي كل أمة؟ بل لماذا لم يتعدد الأبطال في السنة الواحدة؟ في كل بيئة وفي كل شعب؟ لأن البطل وليد نفسه، لا وليد عصره؟ ولطالما صاح العصر، ينادي أين البطل؟ ولا بطل! وتصرخ البيئة مستغيثة يا للبطولة، فيذهب نداؤها أدراج الرياح، ويذهب صراخها لصيحة في واد، ونفخة في رماد.

ويجيب كارليل على هذه التساؤلات فيقول: (إن السبب في ذلك، هو أن البطل، لم يكن قد وجد بعد وقت النداء، وبعد أن يبح صوت العصر، ولا مجيب له، تنهار أركانه، وينهدم بنيانه، ويعم الخراب والتلف، لأن البطل، لم يدركه، حينما صاح يستنجد أو يستجير به، هذا وأن البطل كثيرا ما يوقظ زمانه، لأن زمانه غافل، وكثيرا ما يحرك بيئته، لأنها كانت راكدة وسبب ذلك، أن البطل سبق العصر، وعلا على البيئة[27] ومثال ذلك : ظهور سقراط(*) في عصر سيطر السفسطائيون فيه على التفكير الفلسفي، فكانوا رواد الحكمة، ومعلمي الفلسفة والخطابة، والجدل والبيان، وكان العصر مأخوذا بهم، ومفتونا بتعاليمهم، لكن سقراط خالفهم، في طريقهم وفي غايتهم، وظهر وحده لتسفيه آرائهم، وآراء المقتدين بهم، وانتهت حياته بالقتل في محاكمة صورية، لأنه علم الناس فوق طاقتهم على التعلم، وحكم عليه بشرب السم، وجاء أصدقاؤه إلى سجنه، وعرضوا عليه مهربا سهلا، فقد رشوا الموظفين، الذين يقفون بينه، وبين الحرية والفرار[28] ولكنه رفض، وربما اعتقد، أن الوقت قد حان ليفارق الحياة، وأنه قد لا يموت أبدا بمثل هذه الطريقة لتدعيم مبادئه، ولو أنه أختار الفرار، لما بقي اسمه، يتداول عبر الأجيال إلى يومنا هذا.

الأداء البطولي في فجر التاريخ الإسلامي

قضى العرب في جاهليتهم قرونا طويلة يعبدون الأصنام والكواكب، فهم يتفاخرون بعدوان القوي على الضعيف، وهم يأنفون من الخضوع لحاكم واحد يجمع شملهم، ثم شاء الله أن يهديهم سواء السبيل، فظهر فيهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم رسولا، فأخذ يدعوهم سرا إلى الإسلام، ثم صدع به جهرا، فقاوموه أعنف مقاومة، وقضوا في حربه سنين عديدة[29] وبعد وفاته صلّى الله عليه وسلم، دخل الناس في دين الله أفواجا، فهل كان الرسول وليد عصره؟

لو كان كذلك، ما قاومه أهله والعرب، هذه المقاومة الشديدة، بل رحبوا بمقدمه أعظم ترحيب وآزروه أعظم مؤازرة، لأنه جاء لتحقيق لهم ما كانوا يأملون، ويدعوهم إلى ما كانوا ينتظرون[30] ولكن مقاومتهم، دليل على أنه فاجأهم، بما لم يكن يدور في خلدهم، وهذا دليل على مناقضته لعصرهم.

وقد اتصف الأبطال بصفات نادرة ميزتهم عن غيرهم من الناس، ومن أبرزها، الشجاعة، بل لا بطولة، إلا إذا كان البطل متفوقا في شجاعته، بارزا أنداده بجرأته وإقدامه، فالشجاع، هو الذي يقتحم المخاطر والأهوال، ويأنف من الهزيمة، أو الجبن عند الشدائد، وهو يعلم علم اليقين بأن الموت قاب قوسين أو أدنى، لهذا كان الأبطال شجعانا إلى درجة خارقة.

فالنبي محمد ﷺ يقود المعارك ويديرها بكفاءة عالية، ويتقدم الصفوف، ويتصدى، لما يتصدى له كل صنديد شجاع، وحسبنا، قول الإمام علي كرم الله وجهه (كنا إذا حمى البأس، اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو)[31] ولولا ثباته في غزوة حنين، لحلت بالمسلمين الهزيمة.

وهذا الإمام علي كرم الله وجهه كان شجاعا، لا ينهض له أحد في ميدان المناجزة أو المبارزة إلا جندله، فكان لجرأته على الموت، لا يهاب قرنا من الأقران، بالغا ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت، وخرج، وهو فتى إلى عمرو بن ود العامري في غزوة الخندق، فقتله[32].

وكذا خالد بن الوليد رضي الله عنه، يرى الموت في غير موطن الحرب عارا، وخير شاهد على ذلك، ما قاله، عندما أدركته المنية، وهو على فراش الموت (شهدت مائة زحف أو زُهاءها، وما في بدني موضع شبر، إلا وفيه ضربة سيف، أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وها أنا أموت على فراشي، حتف أنفي، كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء)[33] والأمثلة كثيرة على الأبطال في حضارتنا العربية الإسلامية، والشجاعة ليست مقتصرة على ميادين الحرب، وليست من صفات ومزايا المحاربين الشجعان وحدهم، فهناك شجاعة الجهاد السلمي لتحرير الوطن، وشجاعة الثبات على العقيدة، وشجاعة الرأي الصريح، فهؤلاء كلهم شجعان، بل أبطال، لأنهم أقدموا على ما لم يقدم عليه أقرانهم وأمثالهم وعلى هذا فالبطولة، كما في ميدان الحرب، تكون في ميدان.

وبذلك يظل البطل على أنه، رجل لديه شجاعة استثنائية، ونبل أخلاق، وقوة من طراز مختلف، وحين يحارب من أجل قضية، ذات أبعاد حقيقية، يجعل الشعب يؤمن برأيه، ويسير على نهجه، لأنه تتوفر فيه الصفات الحسنة، وهذا لا يمكن أن يتحقق بمعزل عن الشعب، فالشعب عُدّة البطل وعتاده، وبدونه، لا يصيب البطل النجاح، والشعب وحده، لا يكتب لكفاحه النصر، فالبطل بالشعب، إذن البطل، هو الشعب.

وتبقى عقيدة حب الوطن، فطرية في طبيعة الإنسان، وإجلال الإبطال باقية في النفس البشرية ما بقي الإنسان في الوجود، فترى الشعوب في مختلف مجتمعاتها، إذا ألمت بها ملمة، أو أصابها خطب أو نزلت بها نازلة، فتشوا عن البطل، وراحوا يتوجهون بل يهرعون إلى قبره، فرادى وجماعات في مواكب شعبية ورسمية، وكأنهم يستصرخونه، أن يهب للذود عنهم، وليشعروا بنوع من الطمأنينة عن حاضرهم، الذي كلله هؤلاء الرجال بأعمالهم البطولية، التي فاقت كل نعت، ويعجز عن وصفها أي بيان.

المصادر والمراجع:

1. إبراهيم سراج، موسوعة الأساطير والخرافات الجيزة، مصر، الدار العالمية للكتب والنشر، 2008.
2. ابن منظور، لسان العرب، القاهرة، دار المعارف، 1972.
3. إحسان محمد الحسن، علم الاجتماع السياسي، بغداد، جامعة بغداد، 1983.
4. احمد أمين، فجر الإسلام بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة العاشرة، 1969.
5. احمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت، مكتبة لبنان، 1978.
6. أرلوند توينبي، تاريخ البشرية، نقله إلى العربية الدكتور نيقولا زيادة، الجزء الأول، بيروت، الدار الأهلية للنشر والتوزيع 1981.
7. توماس كارليل، الأبطال، ترجمة وتحقيق محمد السباعي القاهرة، دار المعارف، 1957.
8. جورج بوليتزر، أصول الفلسفة الماركسية، تعريب: شعبان بركات، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، 1968
9. خالد عبد الله، روائع الأساطير العربية، الجيزة، مصر، مكتبة النافذة، 2011.
10. ر. بودون وف. بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة الدكتور سليم حداد، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة 1، 1986.

11. زكريا إبراهيم، مشكلة الفلسفة، القاهرة، مكتبة مصر، 1971.
12. سليمان البستاني، إلياذة هوميروس بيروت، دار المعرفة، المجلد الثاني، بدون تاريخ.
13. سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ترجمة الدكتور سعيد الأحمد بغداد، دار الرشيد للنشر، سلسلة الكتب المترجمة 1980(87).
14. شاكر مصطفى سليم، المدخل إلى الانثروبولوجيا، بغداد، مطبعة العاني 1975.
15. عباس محمود العقاد، إسلاميات، عبقرية محمد، القاهرة، دار الشعب، 1969.
16. عباس محمود عوض، القيادة والشخصية، بيروت، دار النهضة العربية، 1986.
17. عباس محمود عوض، القيادة والشخصية، بيروت، دار النهضة العربية، 1986.
18. فريد كامل، دراكيولا، بطلا قوميا، مجلة العربي، الكويت، العدد 223، يونيو 1977.
19. فورنيسايون، المعجم الميثولوجي، ترجمة جورج لطفي الخوري، بغداد، دار واسط، 19.
20. محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، بيروت، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، 1964.
21. محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة القاهرة، دار الشعب – مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، 1965.
22. نديم مرعشلي، أسامة مرعشلي، الصحاح في اللغة والعلوم، بيروت دار الحضارة العربية، 1975.
23. ول ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة الدكتور فتح الله محمد المشعشع، بيروت، مكتبة المعارف، الطبعة الثانية 1972.

الهوامش:

[1]- محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة نيويورك- القاهرة، دار الشعب – مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، 1965 ص 378.

[2]- ألبان ج. تاريخ كيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي، ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1972 ص 103-109.

[*]- جان دارك (Jeanne Darc - 1412- 1431) قديسة وبطلة قومية فرنسية، تدعى عذراء أورليان (la pucelle d'orléans) قاومت الإنجليز، وتم أسرها ومحاكمتها، وحكم عليها بالإعدام حرقا، وقد وجد الكتاب والشعراء مادة خصبة لأفكارهم فكانت الملاحم الطويلة والكتب الكثيرة، منها: القديسة جان دارك لـ " برناردشو".

[3]- محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، بيروت، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، 1964 ص 15.

[**]- غاندي (موهنداس كرمشند gandhi- 1869-1948) أكبر زعيم سياسي، أنجبته الهند في العصر الحديث، تعلم وزاول دراسته في الهند وبريطانيا، نادى بوحدة الجنس البشري، انتخب عدة مرات رئيسا لحزب المؤتمر الهندي، ولقب بـ "المهاتما غاندي" "الروح الكبيرة" اغتاله هندي في أثناء تأدية الصلاة في 30 يناير 1948.

[4]- نديم مرعشلي، أسامة مرعشلي، الصحاح في اللغة والعلوم، بيروت، دار الحضارة العربية، 1975 ص76

[5]- عباس محمود عوض، القيادة والشخصية، بيروت، دار النهضة العربية، 1986.

[6]- إحسان محمد الحسن، علم الاجتماع السياسي، بغداد، جامعة بغداد، 1983 ص111.

[7]- نفس المرجع، ص 123.

[8]- ابن منظور، لسان العرب، القاهرة، دار المعارف، ص 86.

[9]- سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ترجمة الدكتور سعيد الأحمد، بغداد، دار الرشيد للنشر، سلسلة الكتب المترجمة 1980(87) ص 220.

[10]- شاكر مصطفى سليم، المدخل إلى الأنثروبولوجيا، بغداد، مطبعة العاني 1975 ص 96.

[11]- سليمان البستاني، إلياذة هوميروس، بيروت، دار المعرفة، المجلد الثاني، ص 1140.

[*]- ورد مصطلح " الأوديسا " في مقدمة إلياذة هوميروس على أنها " الأوذيسية " وهي ملحمة، تقصر على الإلياذة بضعة آلاف من الأبيات، يُغلب على الظن، أن الشاعر نظمها في شيخوخته.

[12]- توماس كارليل، الأبطال، ترجمة وتحقيق محمد السباعي، القاهرة، دار المعارف، ص ص 72 73.

[13]- المرجع السابق. ص 101.

[14]- أرلوند توينبي، تاريخ البشرية، نقله إلى العربية الدكتور نيقولا زيادة، بيروت، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، الجزء الأول، 1981 ص 276.
[15]- محمد عثمان الخشب، العقائد الكبرى بين حيرة الفلاسفة ويقين الأنبياء، دمشق – القاهرة، دار الكتاب العربي ط1، 2010 ص 210.
[16]- ابراهيم سراج، موسوعة الأساطير والخرافات، الجيزة، مصر، الدار العالمية للكتب والنشر 2008 ص3، أنظر أيضا: أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت، مكتبة لبنان، 1978، ص 244
[17]- إبراهيم سراج، موسوعة الأساطير والخرافات، مرجع سابق، ص 5.
[18]- خالد عبد الله، روائع الأساطير العربية، الجيزة، مصر، مكتبة النافذة، 2011 ص 3.
[19]- هـ. فرانكفورت، جون. أ. ويلسون وآخرون، ماقبل الفلسفة، الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى، ترجمة جبرى إبراهيم جبرى، بغداد – القاهرة، دار مكتبة الحياة، 1960 ص 278.
[20]- ابراهيم سراج، موسوعة الأساطير والخرافات، مرجع سابق، ص 4.
[21]- فريد كامل، دراكولا، بطلا قوميا، مجلة العربي، الكويت، العدد 223، يونيو 1977، ص 96.
[22]- نفس المرجع، ص 98
[*]- حنبعل: Hannibal247 - 182 ق.م قائد عسكري قرطاجي عاش فترة التوتر، عندما حاولت الإمبراطورية الرومانية، فرض سطوتها على حوض البحر المتوسط ومن أكبر إنجازاته – وعمره خمس وعشرون سنة –غزو إيطاليا بأفياله من إسبانيا عبر جنوب فرنسا وجبال الألب، و قد انضم إليه الغاليين (Les Gaulois) و هدد وجود روما، لكنه أسرع في العودة ليدافع عن قرطاجة، التي حاصرها الرومان، وتمكنوا من تدميرها، تعرض للخيانة ليسلم أسيرا إلى روما، إلا انه تناول السم من خاتم لبسه لوقت طويل على أن يموت أسيرا في يد الرومان .
[**]- الاسكندر الأكبر (ALEXANDRE LE GRAND 356-323 ق.م) عرف بأسماء عديدة منها : ذي القرنين، الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، من أشهر القادة الفاتحين عبر التاريخ، تتلمذ على يد الفيلسوف أرسطو، اتجه في فتوحاته جنوبا فحطم القوة العسكرية في مصر الفراعنة والجيوش الفارسية، وامتدت فتوحاته شرقا إلى الهند، لكنه اضطر أن يعود أدراجه، وتوفي بمدينة بابل بالعراق . انظر تفسير القرطبي، سورة الكهف، الجزء الحادي عشر (قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا) الآية: 86.. يجوز أن الله عز وجل خاطبه على لسان نبي في وقته، لأن الخطاب كان مباشرا.
[23]- ر. بودون وف. بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة الدكتور سليم حداد، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة 1، 1986 ص 238
[24]- توماس كارليل، الأبطال، ترجمة وتحقيق محمد السباعي، مرجع سابق، ص 105 أيضا: ج.أ. أورسون الموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلها إلى العربية، فؤاد كامل، جلال العشري، عبد الرشيد صادق، القاهرة، مكتبة الأنجلو- مصرية، 1963 ص 378.
[25]- أرلوند توينبي، تاريخ البشرية، نقله إلى العربية الدكتور نيقولا زيادة، الجزء الاول، مرجع سابق ص162 ايضا زكريا ابراهيم، مشكلة الحرية، القاهرة، مكتبة مصر، 1971 ص 195.
[26]- جورج بوليتزر، أصول الفلسفة الماركسية، تعريب: شعبان بركات، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، 1968 ص 217.
[27]- توماس كارليل، الأبطال، ترجمة وتحقيق محمد السباعي، مرحع سابق، ص 83
[*]- سقراط: SOCRATES(469 -399 ق . م.) فيلسوف يوناني شهير، وجه البحث الفلسفي إلى الإنسان، وكان قبله موجها إلى العالم الخارجي والأجرام السماوية، ولذلك قيل: أنه استنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، وكان يقول: أن صوتا داخليا يرافقه على الدوام، ويمنعه من ارتكاب بعض الأعمال، اتهم بأنه يحتقر آلهة اليونان وبإفساد الشباب بتعاليمه فحوكم، وحكم عليه بالإعدام، وسقى كأس السم فمات، وهو أستاذ أفلاطون.
[28]- ول ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة الدكتور فتح الله محمد المشعشع، بيروت، مكتبة المعارف، الطبعة الثانية 1972 ص ص 15 و16.
[29]- أحمد أمين، فجر الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة العاشرة، 1969 ص 69.
[30]- عباس محمود عوض، القيادة والشخصية، بيروت، دار النهضة العربية، 1986 ص 11.
[31]- عباس محمود العقاد، إسلاميات، عبقرية محمد، القاهرة، دار الشعب، 1969 ص 30 وما بعدها
[32]- عباس محمود العقاد، إسلاميات، عبقرية الإمام علي، القاهرة، دار الشعب، 1969 ص 119 وما بعدها.
[33]- عباس محمود العقاد، إسلاميات، عبقرية خالد، القاهرة، دار الشعب، 1969 ص 179 وما بعدها.